دور المؤسّسة الدينيّة في العراق في محاربة الاستعمار

بتول الغدّاف[١]

الملخّص

يتناول هذا البحث الدور الذي أدّته الحوزة في مرحلة الاستعمار البريطاني للعراق. يبدأ البحث بشرح أهمية الحوزة العلمية في عيون الشعب العراقي، ثمّ ينتقل ليركّز على موقف الحوزة الحازم في مناهضة الاستعمار بشتّى الوسائل المتاحة لها من خطاباتٍ وإفتاءٍ وتمويلٍ وتسليحٍ ودعوةٍ للثورة. يُعزّز البحث فكرة عدم اكتمال النهضة ضدّ الاستعمار من دون الدين، وأنّ الشعب العراقي بطبيعته دينيّ بسبب اهتمام الإسلام بالجانب الاجتماعيّ وتركيزه على أنْ يكون الحاكم مسلمًا عادلاً. ينتهي البحث بالإضاءة على القوة التي تتمتع بها الحوزة المتأتية من قاعدةٍ شعبيةٍ واستقلاليةٍ مادية، وإدراكها لهذه القوة والحكمة في استخدامها في الماضي والى يومنا هذا.

الكلمات المفتاحية: الاستعمار، النجف، المؤسسة الدينيّة، استعمار العراق، الاستعمار البريطاني.

١. باحثة في الفكر الإسلامي.

المقدّمة

يؤدّي البعد الروحي دورًا محوريًّا في أيّ مسارٍ تحرري من الاستعمار، إذ إنّ المجتمعات التي تعرّضت للاستعمار تاريخيًّا هي مجتمعاتٌ ذاتُ عقائد متجذرةٍ راسخة، والدين جزءٌ أساسٌ من نسيجها الثقافي والحضاريّ؛ لذلك، يصبح من الطبيعي لهذه المجتمعات أنْ تستمدّ قواها وإرادتها لمقاومة الكيان المستعمِر من دينها. بالإضافة إلى أنّ الإسلام، في جوهر تعاليمه، يحثّ على مقاومة الظلم ويدعو إلى التحرّر من الطاغوت. وعليه، يصبح الإيمان ليس وسيلةً للصمود فقط، بل إطارًا فكريًا وأخلاقيًا يعزّز السعي نحو العدالة والحريّة[1].

وفي هذا السياق، يُمكن النظر إلى العراق بوصفه مثالاً حيًّا لمجتمعٍ تشكّل وِجدانه الجماعي من خلال المعتقد والإيمان. فعلى مرّ العصور، كان العراق ولا يزال بيئةً ذات طابعٍ دينيّ متجذّر، حيث أدّت المرجعيّات الدينيّة، ولاحقًا المؤسسات الإسلاميّة، والشعائر الجماعيّة دورًا رئيسًا في تشكيل الوعي الجمعي، ومقاومة الظلم والاستعمار. وقد تجلّى ذلك بوضوح في محطّاتٍ تاريخيّةٍ عديدة، عندما اتّخذت الحركات التحررية العضوية من البعد العقائدي منطلقًا للنضال والدفاع عن الكرامة الوطنية، لا سيّما في مناهضة الاحتلال البريطاني.

تُعدّ الحركات المعارضة الشعبيّة الدينيّة - وخصوصًا ثورة العشرين - من أبرز محطّات المقاومة الشعبيّة في التاريخ العراقي الحديث والتي كان للحوزة العلمية آنذاك دورٌ قياديٌّ ومحوريٌّ في تعبئة الجماهير وصياغة الخطاب المقاوم فيها. لقد شكّلت هذه الحقبة من التاريخ العراقي دليلاً واضحًا على أنّ الدين لم يكن مجرد عنصر روحاني، بل كان عاملاً سياسيًّا وثقافيًّا فاعلاً في مواجهة قوى الاستعمار.

وعليه، يكتسب هذا البحث أهميّته من جانبين أساسيين قد ألمحنا لهما في البدايات:

١. الجانب الأول وهو ما يمكن تسميته بالجانب النظريّ: ويعنى بتوضيح الدور المعقّد للدين في الحياة الاجتماعيّة والسياسيّة للشعوب في مناهضة الاستعمار، والشعب العراقي أُنموذجًا. فعند مناقشة أيّ شكلٍ من أشكال مناهضة الاستعمار العسكري، لا بد من الإقرار بأهميّة مناهضة الاستعمار الأكاديمي أيضًا. ويُقصد بذلك ضرورة إبراز ما يتم الإغفال عنه عادةً في الخطاب الأكاديمي السائد بدعوى الحياد، وهو الدور الجوهري الذي يؤدّيه الدين في تحفيز حركات التحرّر

1. Sarah (Writer on Islamic studies) Marusek، Faith and Resistance: The Politics of Love and War in Lebanon، Book، Whole (London: Pluto Press، 2018) ، https://go.exlibris.link/Vwz8wmNc.

ومقاومة الاستعمار[1]. ويأتي هذا البحث محاولةً لتسليط الضوء على أنّ الشعوب، انطلاقًا من تكوينها الحضاري، تُقاوم بكامل كيانها، وأنّ هذا الكيان الحضاري غالبًا ما يتداخل بعمق مع البنية الدينيّة. ويُعدّ العراق مثالاً ممتازًا لهذا النوع من المقاومة التي لم تضع الدين جانبًا، بل في القيادة. وتُعد دراسة هذا الدور إسهام ضروري لفهم التاريخ العراقي والتوازنات الاجتماعيّة والسياسيّة داخل المجتمع، وخاصّة في ظلّ التعدديّة الطائفيّة والمذهبيّة المعقّدة. بالإضافة إلى أنّه يُسهم في غزارة الإنتاج العلمي لتاريخ العراق الحديث.

٢. أما الجانب الثاني وهو الجانب العمليّ من البحث ولبّه الأساس: ويعنى بدراسة علاقة الحوزة الدينيّة بمناهضة الاستعمار البريطاني للعراق والدور الذي نهضت به في تلك المرحلة. إذ لا يمكن فهم السياق التحرري في العراق بمعزلٍ عن الفاعليّة السياسيّة والاجتماعيّة التي مارستها الحوزة العلميّة وعلاقتها بالشعب، فيسعى البحث الى تفكيك العلاقة بين الدين والمجتمع في هذه المرحلة، وبيان كيف أسهمت المرجعيّات الدينيّة في بلورة وعيٍ وطنيٍّ جامع، كان له الدور المحوري في بناء هويّةٍ مقاومةٍ للاستعمار تمزج بين الانتماء الديني والشعور القومي.

وقبل الخوض في البحث، لا بدّ من تعريف مصطلح المؤسّسة الدينيّة. وهي المؤسّسة الأساسيّة في دراسة العلوم الدينيّة[2]، أمّا في بحثنا، فسنستعمل مصطلح الحوزة العلميّة بالإضافة الى مصطلح المؤسّسة الدينيّة تماشيًا مع الاستعمال الاصطلاحي في العراق، والمقصود بها المؤسّسة الدينيّة التعليميّة الشيعيّة التي يتخرّج فيها الفقهاء والمراجع. وتدرّس الدراسات الإسلامية التقليدية من فقهٍ وأصولٍ وعقيدةٍ وتفسيرٍ ومنطقٍ وحديثٍ ولغة. ولا تتّبع النظام التعليمي الحديث، بل يتلقى طالبُ العلم فيها تعليمه في حلقاتٍ درسيّةٍ تقليديّةٍ رصينة، حافظت على إرثها الممتد إلى القرون الهجريّة الأولى. يقصدها الشيعة من كلّ بقاع الأرض، ومركزها الأساس والتاريخي في النجف الأشرف، بيد أنّ للحوزة فروعًا في كربلاء والكاظميّة أيضًا وغيرها، وبالإضافة إلى علاقتها العابرة للجنسيات مع كلّ الشيعة في العالم. وثمّة حوزات أخرى للشيعة في مناطق تواجدهم أشهرها في إيران، ولبنان، وسوريا.

للشيعة في العراق علاقةٌ خاصّةٌ مع الحوزة حيث تُعنى بأحوالهم الاجتماعيّة والسياسيّة بشكلٍ خاصّ[3].

1. Sarah (Writer on Islamic studies) Marusek، Faith and Resistance: The Politics of Love and War in Lebanon، Book، Whole (London: Pluto Press، 2018) ، https://go.exlibris.link/Vwz8wmNc.

2. Charles Tripp، A History of Iraq، Foreign Affairs، vol. 80، 2001.

٣. الوردي، د. علي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، ص ١٨.

الفصل الأول: نشأة الحوزة العلميّة وتأثيرها في العراق

بعد احتراق مكتبته في بغداد عام ٤٤٨ هجريًا (١٠٥٦) في خضم المشكلات مع السلاجقة، لاذ الشيخ محمد بن الحسن بن علي بن الحسن المعروف بالشيخ الطوسي أو شيخ الطائفة بجوار أمير المؤمنين؟ع؟ في النجف الأشرف. وهناك، شكّل حلقةً دراسيةً صغيرةً، أصبحت نواة الحوزة العلميّة التي تحوّلت لاحقًا الى مركز الشيعة الدينيّ والعلميّ والثقافيّ، ومصدر الحضارة والتطوّر للمذهب الجعفري، حيث تخرّج مئات المجتهدين، ولا تزال عاصمة المذهب الشيعي الاثني عشري بعد مرور ألف سنة[١].

وبعد السلاجقة، أي في حقبة الحكم العثماني للعراق، كانت سياسة العثمانيين تجاه الحوزة سياسة تجاهليّة، تعتمد على التغاضي بشكل كبير[٢]، وذلك حرصًا منها على عدم الاصطدام مع الحوزة بسبب قاعدتها الجماهرية الواسعة واعتراف العالم الإسلامي بها. وعليه، سمح ذلك أن يتمتّع المجتمع الشيعي العراقي بهامشٍ من الحرية والاستقلالية عن الحكومة في بغداد. فكانت الحوزة السلطة الروحيّة والسياسيّة والاجتماعيّة لتلك العشائر الشيعيّة الممتدة على طول نهر الفرات، وكانت العشائر القوة المجتمعيّة والعسكريّة للحوزة ممّا زاد من استقلاليتهم عن السلطة العثمانية[٣].

وقد وجدنا خلال بحثنا أنّ العشائر العراقيّة منذ نشأة الحوزة في النجف، لاسيّما العشائر في مناطق وسط الفرات تحترم وتقدّر الحوزة العلميّة، وتحمل لها نظرات الأب الروحي للمجتمع الذي تستمدّ منه الدافع وتستلهم منه[٤]. وعليه، اضطلعت الحوزة العلميّة في المدن المقدّسة بدورٍ محوريّ في تشكيل المشهدين الاجتماعي والسياسي، فضلاً عن الإسهام الفكري في العراق. فكانت العشائر آنذاك تلجأ للحوزة في فضّ المشاكل القبليّة وتستمع إليها في القرارات السياسيّة والمواقف تجاه السلطة العثمانيّة. وقد استند هذا الدور إلى مقوماتٍ ذاتيّة، في مقدّمتها اعتمادها على القواعد الشعبيّة في تأمين مواردها الماليّة، وقيامها بمسؤولية المرجعيّة الدينيّة في إصدار

١. الكوراني، محمد أمين، علماء الحَوزة العلميّة وصناعة التاريخ فتاوى الجهاد تُسقط التآمر على العباد والبلاد. الاستعمار، المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية، ١، خريف ٢٠٢٤.

٢. المصدر نفسه.

٣. الكوراني، محمد أمين، علماء الحَوزة العلميّة وصناعة التاريخ فتاوى الجهاد تُسقط التآمر على العباد والبلاد. مجلة الاستعمار، المركز الاسلامي للدراسات الاستراتيجية، ١، خريف ٢٠٢٤.

٤. سالم تحسين، موقف العشائر العراقية من الاحتلال البريطاني وحكم الملك فيصل، ص٦٣-٤٤٠.

الفتوى واتّخاذ القرار الشرعي[١]، وهو ما أتاح لها هامشًا واسعًا من الاستقلاليّة في ممارسة أدوارها، بعيدًا عن وصاية السلطة وتأثيراتها، ووفقًا لثوابت الشريعة الإسلاميّة[٢]، وهذا ممّا سعى إليه السيد مهدي بحر العلوم أي المرجع الأعلى آنذاك.

وعلى يد هذا السيد الكبير ـــ الذي بدوره أفاض بإسهاماتٍ غنيةٍ على الحوزة والمذهب الشيعي ـــ تتلمذ لاحقًا الشيخ جعفر كاشف الغطاء الذي أكمل مسيرة أستاذه في تعزيز استقلاليّة الحوزة عن السلطة العثمانيّة[٣]، بل تصدّى لخطر الوهابيّة على النجف. كان الشيخ صاحب بصيرة، فعندما هاجم الوهابيون كربلاء، توقّع مهاجمتهم للنجف، فسعى الى تحصين المدينة عبر بناء سورٍ دفاعيّ لها، بمشاركة السكّان والعلماء على حدٍّ سواء وأمّن الشيخ للمجاهدين العتاد والتدريب فنجحوا في دحر الوهابية[٤]. ولم يكتفِ الشيخ بذلك، فمن مميزات علماء الدين الرّساليين دورهم على الأرض وفي الكتب. فقام الشيخ بتأليف كتاب (منهاج الرشاد لمن أراد السداد) ردًّا على الوهابيّة، فكان مساهمةً فكريّةً في تعزيز الفكر الشيعي في وجه التحدّيات.

حملت الحوزة الهمّ الوطني والهمّ الديني جامعةً هويّة العراق في قلبها: الهويّة المسلمة الوطنيّة. فكانت تسعى بكلّ ما تملك من مالٍ وسلطةٍ لحفظ هذه الهويّة، بل وترسيخها في الشعب. ولعلّ أبرز ما يمكن الحديث عنه في هذا السياق، وقوف الحوزة ودعوتها إلى الجهاد إلى جانب العثمانيين لطرد الاحتلال البريطانيّ. ففي عام ١٩١٤م، وعند دخول الإنكليز، رأى كبار العلماء والمراجع العظام وجوب التصدّي للعدوان الأجنبيّ على الرغم من الخلافات مع السلطة العثمانيّة التي كان لها سياساتٌ سلبيةٌ تجاه الشيعة. إلّا أنّ العلماء الكرام أدركوا أهميّة الوطن وحمايته من كيانٍ استعماريّ كولونيالي. ومن جهةٍ أخرى، يجمع العلماء على أهميّة الوحدة الإسلاميّة في البلاد في وجه أجنبيٍّ كافرٍ فلا يدعمون أيًّا من الطرفين المتنازعين، ولكن يفضلون مصلحة العراق أولًا ومصلحته في وحدته. فإذًا، هذه الأسباب كانت كافيةً لدعوة الناس للجهاد، وتنظيم تطوّع المجاهدين وقيادتهم.

---

١. الحيدراوي، أ. د. حميد، الدور القيادي لعلماء المدن المقدسة في ثورة العشرين على ضوء الوثائق البريطانية، ص ١٥.

٢. الكوراني، محمد أمين، علماء الحَوزة العلميّة وصناعة التاريخ فتاوى الجهاد تُسقط التآمر على العباد والبلاد، ص ٢٠.

٣. أبو صبيع، سيف، الدور القيادي للمرجعية الدينية في النجف الأشرف في عهد المماليك العثمانيين ١٧٥٠ - ١٨٣١ الشيخ جعفر الكبير نموذجًا، ص ٢٧٧-٣٠٩.

٤. المصدر نفسه.

الفصل الثاني: دور الحوزة العلميّة في مقاومة الاحتلال البريطانيّ

موقف الحوزة من الانتداب البريطاني

مع بدايات الحرب العالميّة الأولى في ١٩١٤، احتلّت بريطانيا العراق مدة ١٨ سنة حتى الاستقلال في ١٩٣٢. ويمكن تقسيم هذه السنوات الى أربع مراحل: الاحتلال ١٩١٤-١٩٢٠، والثورة ١٩٢٠-١٩٢٣، والدولة ١٩٢٣-١٩٢٧، والإصلاحات للاستقلال ١٩٢٧-١٩٣٢. يمكن تعريف كلّ مرحلةٍ بحسب التغيّرات السياسيّة البريطانيّة وما طرأ عنها. ففي المرحلة الأولى، دخل الإنكليز الى العراق الذي كان تحت سيطرة السلطة العثمانيّة، فرفضهم العراقيّون وحاربوهم جنبًا إلى جنبٍ مع العثمانيين، رافضين هيمنة كافرٍ أجنبيّ رغم الاختلاف مع الأتراك. وكان من أبرز المشاركين في المحاربة العسكريّة للبريطانيّين خلال المرحلة الأولى السيّد محمد سعيد الحبّوبي. توجّه السيّد الحبّوبي الى البصرة، حيث قاتل مع المجاهدين على أرض المعركة، على الرغم من كبر سنّه ومرضه، إلّا أنّه كان يعدّ القتال واجبًا عليه قبل غيره. كان السيّد الحبّوبي يملك مزايا قياديّةً بالإضافة إلى مكانته العلميّة، فكان بمنزلة الأب المعنوي للمقاتلين. توفّي نتيجة مرضه وعدّ شهيدًا ميدانيًّا بين صفوف المجاهدين في المعركة في الشعيبة عام ١٩١٥ بالقرب من البصرة، ودُفن لاحقًا في النجف الأشرف. يُعدّ السيّد الحبّوبي اليوم أيقونة العالم المجاهد في الفتوى والسلاح.

لا يمكن القول إنّ ردّة الفعل هذه من شيعة العراق وعلمائها غريبة على البريطانيين؛ لأنّهم شاهدوا ردود فعل العراقيين سابقًا على احتلالهم مناطق إسلاميّة أخرى[١]. ولكن عندما خسر العثمانيّون الحرب، بقي الإنكليز في البلاد، بل عدّوا العراق حصّتهم من تركة الرجل المريض. أجبر هذا العراقيين على العمل ضدّهم حتى إخضاعهم، تارةً بالدبلوماسية، وأخرى بالثورة وصولاً للاستماع إليهم، وتنفيذ طلباتهم بعد سنين طويلة من الرفض والمقاومة. لقد أثمر هذا الجهاد نتيجة توحّد العراقيين عشائريًا وحوزويًّا ضدّ الاحتلال. كانت الحوزة على رأس هذا البذل كلّ هذه السنوات وصاحبة الدور الأساس في مواجهة الاحتلال. بدايةً، أعربت الحوزة في النجف الأشرف وكربلاء عن رفضها الواضح للهيمنة الأجنبيّة على العراق، وأدانت الانتداب. ثم عملت رويدًا في السرّ والعلن حتى قادت حركة مقاومةٍ واسعة بالفتاوى والدعم المسلّح والتحريض المباشر الذي بلغ ذروته في ثورة العشرين.

يأتي موقف الحوزة من البريطانيين ردّة فعلٍ طبيعية من طلّاب العلوم الإسلاميّة، فالإسلام أعطى

١. الكوراني، محمد أمين، علماء الحَوزة العلميّة وصناعة التاريخ فتاوى الجهاد تُسقط التآمر على العباد والبلاد، ص ٢٠.

أهميّةً للدولة والحكومة، وحثّ على ضرورة أنْ يكون الحاكم مسلمًا وعادلاً. ثم إنّ طالب العلوم الدينيّة أول من يعدّ نفسه مسؤولاً أمام شعبه على تطبيق النظرة السليمة للسلطة على المسلمين[١].

النجف وكربلاء: معقل الثورة

بدأت في النجف الأشرف جلساتٌ سريّةٌ بين مشايخ العشائر الكبار وعلماء الدين، ومنهم السيّد علوان الياسري والحاج عبد الواحد سكر[٢]. جرى في هذه الجلسات نقاشاتٌ حول قيام الثورة، وبعد الأخذ والردّ في خياري السلميّة أو التسليح، وافق الجميع على العصيان المدني أولاً ليتحوّل فيما بعد بحسب مجريات الأمور الى ثورةٍ وطنيّةٍ شاملة. كان بعضٌ من العلماء معارضين في البداية، كما سنذكر لاحقًا، خوفًا على العشائر من جيش البريطانيين وقوته وعتاده، لكن في هذه الجلسات تم إقناعهم بعد أنْ تأكّدوا من إرادة العشائر وقوتهم من جهة، ومن عدم جدوى الحلول السلميّة من جهةٍ أخرى. فبرزت أعلام الثورة بمواقفهم المشرّفة الداعمة مثل الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء حفيد الشيخ جعفر كاشف الغطاء، والسيّد الأصفهاني وغيرهم.

أمّا في كربلاء، فكان العمل مستمرًا ودؤوبًا ومنظّمًا في اجتماعاتٍ كبيرةٍ في المدينة بقيادة العلاّمة السيّد محمد تقي الشيرازي. فكانت الحركات الشعبيّة والخطابات الدينيّة المنددة بالاحتلال التي تدعو لتكثيف الجهود لدحره. كما كانت كربلاء مكانًا لتحشيد الثوار ونقطة انطلاق.

الكاظميّة: أرض الوحدة والثبات

وفي الكاظميّة كان هناك سعي من علماء الدين لبثّ الوحدة الإسلاميّة بين المسلمين السنّة والشيعة في المدينة لا سيّما من الشيخ مهدي الخالصي، والسيد مهدي الحيدري. فقد أرسلوا الرسائل الى علماء النجف وكربلاء للتباحث في بداية الثورة، وهذا ممّا اكتشفته الشرطة السريّة البريطانيّة وما نقلته المس بيل لاحقًا. فقد أزعجهم كثيرًا، فكلّ عملٍ فيه اتّحادٌ ووحدةٌ يثير من قلقهم، ويعبرون عنه في وثائقهم[٣].

---

١. كاشف الغطاء، الشيخ عباس، الفقه السياسي في مدرسة النجف الأشرف المعاصرة.

٢. سالم تحسين، موقف العشائر العراقية من الاحتلال البريطاني وحكم الملك فيصل، ص٦٣-٤٤٠.

3. Gertrude Bell، The Arab of Mesopotomia (Westphalia Press، 2016) ; Gertrude Lowthian Bell and Florence Eveleen Eleanore Olliffe Bell Lady، The Letters of Gertrude Bell، (New York: Boni & Liveright، 1928)،

مدنٌ أخرى

كما كانت سامراء تحارب البريطانيين مع السيّد محمد رضا الشيرازي نجل السيد محمد تقي الشيرازي، فقد دعمت الثورة مدنٌ أخرى مثل بغداد التي عملت على تثبيت وتعزيز الوحدة الإسلامية. فنذكر اقتباسًا من ورقةٍ بحثيةٍ بدورها اقتبست من (كتاب العراق في سجلات الوثائق البريطانية)[١]: «كان العمل المنظّم لتحقيق الوحدة الوطنيّة بين أبناء الشعب العراقي المتنوّع دينيًّا ومذهبيًّا من أروع عوامل التخطيط لمواجهة الاحتلال البريطاني، فقد أزعج الحراك التقريبي في بغداد بين الشيعة والسنّة في عامي ١٩١٩-١٩٢٠ البريطانيين كثيرًا، وهذا ما ظهر واضحًا في وثائقهم ومراسلاتهم ومؤلّفات بعض المسؤولين منهم عن إدارتهم، فعلى سبيل المثال لا الحصر اتفقوا على تسمية التقارب بين السنّة والشيعة بأنّه (الالتجاء الى التعصّب الديني)، وهو بحسب تعبير أحد التقارير البريطانيّة المدونة خلال تلك المدة (حجة يفهمها أكثر الناس جهالة)»[٢].

الحوزة وثورة العشرين (١٩٢٠)

لعلّ وصف أحد قادة الاحتلال البريطاني في العراق مدن العتبات المقدّسة (الكاظمية، وكربلاء، والنجف الأشرف) بأنّها «الأماكن الثلاثة التي تعرف بكونها مراكز تثور فيها العواصف»[٣]، من أكثر الأوصاف دقةً فيما يتعلّق بدور الحوزة في الثورة والمجتمع السياسي العراقي.

إنّ ثورة العشرين ليست بالثورة الأولى في تاريخ العراق، لا سيّما التاريخ الديني السياسي «آخر ثورة قبل ثورة العشرين كانت عام ١٩١٨ بقيادة وتحريض الشيخ محمد سعيد الحبوبي»[٤]. إلّا أنّ هذه الثورة كانت الأكثر تنظيمًا، ومن الأكثر تأثيرًا في تاريخه. توحّدت حينها جهود قيادات العشائر والحوزة لمناهضة الاحتلال البريطاني القمعي. وكان للحوزة الحصة الأبرز في قيادتها وخاصة في إشعال روح الثورة في الشباب العراقي إمّا عبر الخطابات والفتاوى، وإمّا عبر التمويل والتسليح والحماية والمشاركة المباشرة.

اشتعلت الثورة في ٣٠ حزيران ١٩٢٠، واستمرت ما يقارب الخمسة أشهر. استشهد فيها

١. الف دي ال رش، العراق في سجلات الوثائق البريطانية، ص ٢٩١.

٢. الحيدراوي، أ. د. حميد، الدور القيادي لعلماء المدن المقدّسة في ثورة العشرين على ضوء الوثائق البريطانية، ص ٨.

٣. المصدر نفسه، ص ٨.

٤. سالم تحسين، موقف العشائر العراقيّة من الاحتلال البريطاني وحكم الملك فيصل، ص ٤٤٨-٤٤٩.

حوالي ٦٠٠٠ عراقي وجرح الآلاف، إلّا أنّها أخضعت الإنكليز وأوصلت العراقيين إلى مكانٍ لا تراجع فيه من تطوراتٍ سياسيّةٍ حيث أصبح للعراقيين حكومةٌ شكليّةٌ ونُصّب الأمير فيصل ملكًا على البلاد عوضًا عن الحكم البريطاني المباشر وتمهيدًا للاستقلال التام بعد سنوات.

يجدر الذكر أنّه وبحسب المصادر المطروحة، لم يكن لدى قيادة الثورة تصوّرٌ واضحٌ لمرحلة ما بعد الثورة[١] فهم لم يرغبوا بالثورة بدايةً، ولكن أفعال البريطانيين من الكذب والمماطلة ونيّتهم للهيمنة جعلت خيار الثوري حتميًّا، فلم يعد السكوت وإعطاء الفرصة خيارًا. وقد كان موقف الحوزة صارمًا وواضحًا: ألّا يتولّى حكم المسلمين أجنبيّ يغيّر هويّة العراق المسلمة.

التحريض ضدّ الاحتلال عبر الخطب والفتاوى

إنّ ما يميّز المرجع الديني عن باقي الناس، وصوله في العلم إلى الحدّ الذي يسمح له بإصدار فتاوى اجتماعيّةٍ بما يراه مناسبًا مستنبطًا من القرآن والسنّة النبوية. فيصبح لعالم الدين دورٌ إضافيٌّ إلى جانب دوره الفقهي، وهو دور ومسؤولية سياسيّة اجتماعيّة تجاه مجتمعه وما يحدث فيه. وهذا ما كان بارزًا من علماء الحوزة في ثورة العشرين، إذ رفدت الحوزة في النجف وكربلاء والكاظميّة المجتمع بالفتاوى والخطابات ضدّ الاحتلال محوّلين هذه المناطق إلى أماكن (تثور فيها العواصف) كما وصفهم البريطانيون.[٢]

الميرزا الشيرازي

الميرزا محمد تقي الشيرازي، عاش في سامراء، ثم انتقل إلى كربلاء. ولا يمكن ذكر تاريخ العراق الحديث دون ذكر اسمه لما له من أثرٍ كبيرٍ في تاريخه، فيعدّ من قياديي ثورة العشرين، هو وشيخ الشريعة الأصفهاني، وغيرهم من العلماء. كرّس وقته وعمله وعلمه في سبيل حريّة العراق. توفي سنة ١٩٢٠، خلال الأحداث، ويشتبه أنّ وفاته لم تكن طبيعيّةً في تلك الظروف[٣].

ينقل التاريخ أنّ الميرزا محمد تقي الشيرازي لم يكن مؤيدًا للثورة في بداياتها، حرصًا منه

١. الحيدراوي، أ. د. حميد، الدور القيادي لعلماء المدن المقدسة في ثورة العشرين على ضوء الوثائق البريطانية. ص ١٦.

٢. المصدر نفسه.

٣. الوردي، علي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، ص ٤٤.

وخوفًا على أرواح العراقيين. ولكن الناس هي من أقنعته أنّها مستعدةٌ لمواجهة الإنكليز، فكان جوابه إصدار الفتوى الشهيرة: «مطالبة الحقوق واجبةٌ على العراقيين، ويجب عليهم في ضمن مطالبتهم رعاية السلم والأمن ويجوز لهم التوسل بالقوة الدفاعيّة إذا امتنع البريطانيون من قبول مطالبهم»[١]. تعدّ هذه الفتوى الأولى التي تبيّن موقف الميرزا الشيرازي من البريطانيين بهذا الوضوح وألحقت هذه الفتوى بمزيدٍ من الفتاوى التي تدعو للجهاد ضدّ الاحتلال. تأثّر العراق كلّه بفتاوى الميرزا الشيرازي، فمن شمال العراق وحتى جنوبه تشجعت الناس من كلا المذهبين على محاربة الإنكليز ومقاومته[٢].

ونقلت مصادر بريطانية أنّ العشائر حاربتهم بتحريضٍ من (المجتهد الأكبر)، وأنّ الناس تقاتلهم «تحت راية الجهاد»[٣]، وأنّ دعوة الثورة انتشرت من رجال الدين في كلّ العراق. كما حمى الميرزا المجاهدين، وأمّن لهم التغطية حتى بات بحسب تعبير السر ولسن «... بيت ميرزا محمد تقي وكرًا لشخصيّات سيئة السمعة»[٤]. ولم يكتفِ بذلك فحسب، بل أفتى الميرزا أيضًا باستخدام زكاة المسلمين لتأمين نفقات الثوار المجاهدين[٥].

طبعت فتاوى الميرزا الشيرازي بالآلاف، وانتشرت بين العشائر بشكلٍ كبير، مشعلةً روح الثورة فيهم، ومزودةً إيّاهم بالدافع الديني الوطني للمقاومة[٦].

شيخ الشريعة الأصفهاني

وفي سياقٍ متّصل، قام شيخ الشريعة وهو الشيخ فتح الله الأصفهاني بإصدار فتوى هو الآخر قال فيها: «لا يخفى أنّ الحرب العراقيّة نهض بها المسلمون مدافعين عن إخوانهم، فعلى عموم المسلمين معاضدة إخوانهم ومساعدتهم بالنفس والنفيس، فإنّ المتقاعد عن ذلك يستحقّ

١. الرهيمي، عبد الحليم، تاريخ الحركة الإسلامية في العراق ١٩٠٠-١٩٢٤، دار الكوفة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨، ١٦٣-١٦٥.

٢. الحكيم، علاء الدين، تمويل المرجعية الدينيّة المالي لثورة العشرين ١٩٢٠ م - دراسة تاريخية، ص ٦٨٢- ٧٠٣.

٣. المصدر نفسه.

٤. الحيدراوي، أ. د. حميد، الدور القيادي لعلماء المدن المقدسة في ثورة العشرين على ضوء الوثائق البريطانية، ص ١٣.

٥. الحكيم، علاء الدين، تمويل المرجعية الدينية المالي لثورة العشرين ١٩٢٠ م - دراسة تاريخية، ص ٦٨٢ - ٧٠٣.

٦. المصدر نفسه .

سخط الله ورسوله، وبذلك كفاية لمن استبصر»[١]. وكان شيخ الشريعة الأصفهاني – وهو من كبار العلماء- من تولّى المرجعيّة في النجف بعد وفاة الميرزا الشيرازي.

حين قال شيخ الشريعة الأصفهاني لزعماء العشائر أنّه سيترك أمر المفاوضات لهم، أجابه عليه الحاج رايح العطية: «إنّ الزعماء لا يريدون مخالفة أوامر علماء الدين، وإنّما يسيرون بإرادتهم ويسترشدون بهديهم»[٢]، ولعلّ هذه الجملة تلخّص علاقة الناس بالحوزة، فعموم الناس تنتظر إلى عالم الدين بوصفه مرشدًا، وتتوقع منه الموقف والحكمة وأنْ يكون في طليعة قيادة السياسة المصيريّة للبلاد. فدور الحوزة هنا ليس واجبًا تتبناه بنفسها فقط، بل تطلبه الناس أيضًا. مثّل العراق في ثورته ضدّ الاستعمار خير مثالٍ لهذه الثنائية. كما نذكر تعامل الشيخ مع الأسرى. فقد كان يحثّ على أن يُعاملوا بالطريقة الإسلاميّة.

من الجدير بالذكر أن شيخ الشريعة وباقي علماء النجف الأشرف عارضوا الحكومة المؤقتةالتي اقترحها البريطانيون بعد الثورة إلاّ أنّها كانت بذرة الاستقلال لاحقًا[٣].

علماء آخرون

بالإضافة إلى المرجعينِ الكبيرين، كان لسائر العلماء دورٌ أساسٌ أيضًا. أفتى الكثير منهم في وجوب الثورة ووجوب دعمها بالشباب والعتاد، ومنها فتوى الشيخ محمد مهدي الخالصي التي أحدثت ضجةً هي الأخرى، وفتوى الشيخ هادي آل كاشف الغطاء التي طلب فيها العون في تمويل الثورة[٤]. كما قام العلماء بمشاركة الثوّار مباشرةً في القتال، وأسفر ذلك عن سقوط شهداء منهم.

الوحدة الإسلاميّة

لا يمكن الحديث عن موقف الحوزة من الاحتلال البريطاني دون التطرّق إلى مساعي الحوزة الجادة والحازمة فيما يتعلّق بالوحدة الإسلاميّة بين السنّة والشيعة في العراق. لقد أثارت

١. الجادر، الهام محمود، وكناوي رواء صباح، مواقف شيخ الشريعة الأصفهاني في ثورة العشرين. ص ١٤٧-٨٤.

٢. المصدر نفسه.

٣. المصدر نفسه.

٤. الحكيم، علاء الدين، تمويل المرجعية الدينية المالي لثورة العشرين ١٩٢٠ م - دراسة تاريخية، ص ٦٨٢ - ٧٠٣.

هذه المحاولات الدؤوبة ملاحظة البريطانيين وغضبهم؛ لأنّهم أرباب سياسة (فرّقْ تَسُدْ). فقد كان رهان البريطانيين على الاختلاف الطائفي. فنجد في الوثائق البريطانية امتعاض الإنكليز من الحراك التقريبي الذي أقيم في بغداد حيث سمّوه في أكثر من مناسبة «بالالتجاء إلى التعصّب الديني»[١].

في تلك الفترة، كان السنّة يُدعون ليحضروا موالد الشيعة في الكاظميّة مع متابعة وموافقة العلماء في مدينتي النجف وكربلاء. وفي تلك الموالد، كانت تُلقى كلمات في الاستقلال وضرورته والتحريض السياسي الحماسي ضد البريطانيين[٢].

وقد تبدو هذه الموالد دينية بحتة، إلّا أنّه وبحسب الرسائل والتقارير المخابراتية البريطانية، تتضح كم هي سياسية بدورها. فقد كان الإنكليز ينقلونها بحذافيرها مع أعداد الحضور وطبيعة الفعاليات والخطابات والهتافات التي لا تخلو من ذكر الثورة على الظلم (مثل مجالس عزاء الإمام الحسين والتذكير لماذا ثار)[٣].

ونختم بالتكرار عن أهميّة الوحدة الإسلاميّة ومدى خطرها في عيون البريطانيين بحسب قولهم من اقتباسٍ مباشرٍ لهم من تقريرٍ بريطاني ذكر في ورقةٍ بحثيّةٍ من مركز دراسات الكوفة (٢٠٢٢)، نصّه: «من الصعب القول إلى متى سيبقى الاثنان سائرين بهذا الروتين، ولكن في حال دوامه، ثمة خطرٌ كبيرٌ مؤكد. يناقش القضايا السياسية كلّ إنسانٍ في كلّ مكانٍ وبشيءٍ قليلٍ من التحفظ، فقد كسبوا الثقة بهذا الاتّحاد الحقيقي أو الخيالي، وينتقدون الحكومة بحريةٍ أعظم من ذي قبل. هدف هذه المواليد العظيمة هو الوصول الى الطبقات الدنيا هذه الطبقة يأتي التهديد الخطير»[٤].

١. الحيدراوي، أ. د. حميد، الدور القيادي لعلماء المدن المقدسة في ثورة العشرين على ضوء الوثائق البريطانية، ص ٥٦.

٢. المصدر نفسه، ص ١٠.

٣. المصدر نفسه.

٤. الف. دي. ال. رش، العراق في سجلات الوثائق البريطانية، ص ٣٢٨.

دعم الثوار بالسّلاح والتمويل

يأتي تمويل المرجعيّة الدينيّة من عدة مصادر تدعى الأموال الشرعيّة: الخمس، والزكاة، والكفارات، والأوقاف والهبات الخيرية. وهذا التمويل غير منوطٍ بمكانٍ جغرافيّ معيّن. يكفي أنْ يكون المرء من المقلّدين حتى يدفع الحقوق الشرعيّة إلى المرجعيّة أو وكلائها.

خلال ثورة العشرين، وبحسب دراسةٍ تاريخيّةٍ في مجلة أدب الكوفة، «تولّى المراجع تمويل الثورة بكلّ ما يقع تحت أيديهم من الحقوق الشرعيّة. وقد أفتى العلماء بصرف الحقوق الشرعيّة للثوار. بل وكان المرجع السيّد محمد تقي الشيرازي لا يبقي ممّا يصله منها له ولأسرته فقد كانت تتوافر لديه أكوام من النقود ممّا يرشحها إليه المقلّدون من مختلف الجهات»[١]، ويصرفها كلّها على الثوّار والثورة. كما وأصدر الميرزا محمد تقي الشيرازي وغيره من المراجع الكبار فتاوى بوجوب تأمين نفقات المجاهدين من الأموال الشرعيّة دعمًا للثوّار والثورة[٢].

وبعد، يُنقل في دراسةٍ تاريخيّةٍ أنّ السيّد محمد سعيد الحبّوبي وهو من عائلةٍ ثريةٍ تمتلك، أنّه «كان يغدق على شيوخ القبائل بالجوائز من ماله الخاصّ، ويخلع الحلل الثمينة، وقد نفد ماله في طريق الجهاد في مدينة السماوة، وهو في طريقه إلى جبهات القتال، وسحب حوالة على أخيه في النجف فصرفها على العشائر»[٣].

بالإضافة الى ذلك، «لم تكن المساعدة التي توليها المرجعيّة الدينيّة مقتصرة على الثوار في ساحات المعارك، بل تعدتها الى جرحى الثوار القاطنين في المستشفى، فقد طلب مجلس علماء كربلاء من المرجعيّة الدينيّة تخصيص قسمٍ من المبرات المجموعة للثوار، وإرسالها إليهم لصرفها على جرحى المقاتلين»[٤].

ويُذكر أنّه: «غادر السيّد محمد نجل المرجع السيّد محمد كاظم اليزدي النجف متوجّهًا إلى الكاظمية، ومنها إلى جبهات القتال. وفي منطقة الأهواز، وبعد انتصار المجاهدين هناك وزّع

١. الحكيم، علاء الدين، تمويل المرجعية الدينية المالي لثورة العشرين ١٩٢٠ م - دراسة تاريخية، ص ٦٨٢ - ٧٠٣

٢. المصدر نفسه، ص ٦٩٢.

٣. المصدر نفسه، ص ٦٨٨.

٤. المصدر نفسه.

السّيد عشرين ألف ليرةٍ على المقاتلين ورؤساء العشائر»[١]. كما كانت هناك لجان في المدن المحرّرة، يقوم عملها على الإشراف على تلبية احتياجات المتطوّعين وجمع التبرّعات من العامة للمقاتلين. وقد قام شيخ الشريعة الأصفهاني بتأمين إعاشة الثوّار المقاتلين فترةً من الزمن من هذه المساعدات المالية. وأصبح العلماء يجبون الأموال الشرعية، وشكّلوا تحت إشراف السيّد الشيرازي مجلس الإعانات للثوار[٢]. عدا أموال الحقوق المذكورة، فبعض العلماء لم يكتفوا بتوزيع الحقوق فحسب، بل تبرّعوا للثورة من مالهم الخاص[٣].

باختصار، لقد قامت الحوزة بمساعدة الثورة قدر ما تستطيع كما هو واضح حتى باتت الثورة بقيادة وتمويل رجال الدين لكل العراقيين. زاد هذا الأمر من حب الشعب للحوزة وألفة العلاقة بينهما أكثر. فأثبتت الحوزة أنّ أموال المسلمين تصرف لتحقيق الحرية ومساندة واستقلال المسلمين.

الفصل الثالث: الحوزة العلميّة وموقفها من الحكومات بعد الاستقلال

قبل الحديث عن موقف الحوزة العلميّة من الحكومات ما بعد الاستقلال، لا بدّ من الإشارة إلى ما تطرق إليه السر ولسون عن الحوزة وعلماء الدين في إحدى رسائله التي نقلت في مذكراته. قال ولسون: «إنّ علماء الدين الشيعة يرفضون أيّ دولةٍ أو حكومةٍ دنيويّةٍ خشية تحرّر الناس ونفاذ سلطتهم»[٤]. الحقيقة أنّ ما شغل بال الحوزة العلميّة في تلك الفترة - ولا يزال - كان رفضهم للاستعمار الأجنبيّ الكافر؛ لأنّهم - على عكس ما يدّعيه ولسون - أصحاب بصيرةٍ وتطلّعٍ لمستقبلٍ كريمٍ دينيّ إسلامي للمجتمعات.

أبناء الحوزة هم أناس يسعون ويقبلون إقامة حكومةٍ دينيّةٍ يعيش فيها الناس بحريةٍ وعدل، وقد أثبتوا ذلك في كلّ مواقفهم التاريخيّة، حيث دعموا الناس وحثّوهم على إقامة حكومةٍ عربيةٍّ وطنيّةٍ. إنّ الدين الإسلامي يرفض الظلم ويقاومه، ولا يقبل بسلطة الكفر على المسلم، لا

١. المصدر نفسه، ص ٦٨٩.

٢. المصدر نفسه.

٣. المصدر نفسه.

4. Arnold Talbot Wilson Sir، Mesopotamia، (Oxford: Cambridge University Press، 1930) .

سيّما المذهب الجعفري كما كان متبلورًا من ردة فعل الحوزة تجاه الاحتلال الإنكليزي ودعمها الصريح للثورة.

وبعد الثورة، أي في مرحلة الدولة (١٩٢١-١٩٢٧) استمرت الحوزة على موقفها النقدي، حيث عدّت تعيين الملك فيصل استمرارًا للهيمنة البريطانيّة، فلم تغمض الحوزة عيونها عن الإنكليز أو تثق بتغيير موقفهم ووفائهم لوعودهم. وباتت ردّة الفعل هذه واضحةً في عام ١٩٢٢ حين دعت الحوزة بقيادة الشيخ مهدي الخالصي إلى مقاطعة الانتخابات البرلمانية ممّا أدّى إلى فشلها. كما لم تقبل إعطاء الشرعيّة الدينيّة للحكومة الجديدة[١].

يجدر بالذكر أنّ الحوزة دفعت ثمن تلك المواقف الصارمة، فتعرّضت لمضايقاتٍ عدّة من الحكومة البريطانيّة. فحاول الإنكليز كسر هيبتها وقوتها عبر نفي الشيخ الخالصي ومعه العديد من العلماء ورفض إرجاعهم لاحقًا دون شروط مقيدة لعملهم وعهود في عدم التدخل في الشؤون السياسية. هذا بالإضافة الى التضييق على أنشطتهم الدينيّة[٢].

ولكن ذلك لم يمنعها من الثبات على موقفها أو الاستمرار في الضغط. فعاد الشيخ الخالصي إلى العراق مجددًا عام ١٩٢٤، ولم يلتزم بشروط الحكومة، واستمر في عمله السياسي، منتقدًا ورافضًا للاحتلال البريطاني حتى تم نفيه مجددًا إلى أن توفي في ١٩٢٥ [٣]. [٤]

كما استمرت الحوزة في ثباتها حتى مع تتابع الحكومات المهادنة للإنكليز، فدعمت حركة مايس ١٩٤١ [٥]، حتى أطاحت الحركة بالحكومة الداعمة للإنكليز. ومنذ الخمسينات صعودًا، استكملت الحوزة دورها في الإرشاد والعمل السياسي الاجتماعي، فنشأ حزب الدعوة على يد السيّد محمد باقر الصدر، وعارض السياسات الديكتاتوريّة للرئيس العراقي السابق صدام حسين. وفي كلّ حقبةٍ من تاريخ العراق نجد الحوزة في قمة الحكمة، مثل عام ٢٠٠٣، والاجتياح

1. Yitzhak Nakash، The Shi'is of Iraq (Princeton، N.J: Princeton University Press، 1994)

٢. .المصدر نفسه.

٣. المصدر نفسه.

4. Charles Tripp، A History of Iraq، Foreign Affairs، vol. 80، 2001 .

٥. سوادي، سعيد شخير وزهراء رياض ناصر، أثر الحوزة العلمية على الراي العام العراقي في حركة مايس ١٩٤١، ص ٢٥٩-٢٧٤.

الأمريكي حيث رفضت الحوزة العنف محافظة على السلم الأهلي، وحقنًا للدماء العراقية وصولاً إلى فتوى الجهاد الكفائي الذي شكّل الحشد الشعبي وطرد الإرهابيين من العراق.

وأخيرًا، إنّ من يقارب البحث عبر قراءة التاريخ برؤيةٍ كلّيةٍ شاملة، يرى أنّه بداية كانت الشعلة في كربلاء والميرزا الشيرازي، وبعد وفاته، أكمل المسيرة وحمل الشعلة شيخ الشريعة الأصفهاني في النجف، وبعد وفاته هو الآخر، أكمل المسيرة الشيخ مهدي الخالصي، بفتوى جهاد واضحةٍ وصرخةٍ عاليةٍ في وجه الإنكليز. فكانت كربلاء والنجف والكاظمية مراكز الثورة، تماما كما وصفهم الإنكليز، وأن علماء الحوزات في كل منطقة أصحاب الشعلة. وهذه القراءة إنْ كانت تعكس شيئًا فهي تعكس الرؤية الدينيّة في مواجهة الاستعمار، وتعكس وحدة موقف الحوزة العلميّة في العراق واستمراريتها في نهجٍ واحد، مقاومة الطغيان ورفض الهيمنة الأجنبيّة.

هامش: للحوزة الأثر على المجتمع ككل: من العشائر إلى الأدباء إلى الصحافة

في هامش بسيط، وجدنا وجوب ذكر أثر الحوزة في المجتمع بوجهيه الأدبي والصحافيّ. فلم تؤثر فتوى الحوزة العلميّة ضدّ الاحتلال البريطاني على المجتمع العراقي فحسب، بل على كلّ مجتمعٍ دينيّ شيعيّ في المنطقة. فأقام الشيعة في إيران ولبنان تظاهراتٍ منددةً بالاحتلال وقد ألقى الشاعر أحمد الصافي النجفي في بيروت أمام القنصليّة العراقيّة قصيدةً حماسيةً أدان فيها المحتلين[١].

وكانت الصحافة الوطنيّة من مجلاتٍ وجرائد، ونذكر منها جريدة البلاغ ومجلة الغري[٢]، تنشر آراء علماء الدين في الاحتلال البريطاني، بالإضافة الى الفتاوى التي تأمر بوجوب الجهاد ومحاربة الهيمنة الأجنبيّة.

الخاتمة

ختامًا، نشهد كثيرًا من المحاولات لإبعاد الدين عن المجتمع، لا سيّما في عالم الأبحاث والتحليلات التاريخيّة والسياسيّة. لطالما زعمت هذه التحليلات أنّ الدين إما كان بعيدًا عن

١. المصدر نفسه.

٢. جريدة البلاغ، السنة العاشرة، العدد ٩٧٦، ٩ مايس ١٩٤١.

هموم الناس السياسيّة، وإما كان مستغلاً لها. لكن الحقيقة عكس ذلك، وتاريخ العراق ولحظاته المصيريّة تشهد وتثبت العكس. كما سبق أنْ ذكرنا في البحث أنّ للحوزة العلميّة الدور الأساس في المجتمع العراقي، والحوزة بطبعها المستقلّ قد تحيد نفسها عن النزاعات السياسيّة الداخليّة الدقيقة، إلّا أنّها تشارك هموم الناس فتساعد على تشكيل هويّاتهم، متى ما رأت الحاجة لذلك. والناس بدورهم ينتظرون الحوزة، ويتوقعون منها الإرشاد والنصح، ويدعمونها ويمكنونها من خلال عونهم ومشاركتهم مشاكل حياتهم.

في ثورة العشرين مثلاً، وحدّت الحوزة الصفوف الداخليّة ضدّ المحتلّ، ووجّهت البوصلة باتجاه العدو، ممّا منع الاقتتال الداخلي، وحقن أيّ فتنةٍ محتملة، وكرّست طاقات الشعب نحو هدفٍ واحد، فعمل الشعب كالجسد الواحد، وفاجأ المحتلّ بعزمه وثبوته رغم الجراح والدم. لم يكن دورها مجرد عنصرٍ روحيّ أو ثقافي، بل تحوّل إلى قوةٍ دافعةٍ للمقاومة وبناء الهويّة الوطنيّة. كذلك شكّلت الحوزة العلميّة في هذا السياق مركزًا قياديًّا، ليس فقط في توجيه الوعي الشعبي، بل أيضًا في صياغة الخطاب السياسي والأخلاقي الذي واجه الاستعمار البريطاني. حتى إنّ قيادة الثورة كانت من (الملاءة) بحسب تعبير المحتلّ. كان المعممون في طليعة الصراع وخلفهم الشعب. ومن خلال الفتاوى والخطب والتنظيم الشعبي، جسّدت المرجعيّة الدينيّة آنذاك نموذجًا معبّرًا لتحالف الإيمان والعمل الاجتماعي الشعبي، ممّا أضفى على الثورة طابعًا جامعًا عابرًا للطوائف والهويّات العشائريّة، ممهّدًا للوحدة الوطنيّة.

ولم يقتصر تأثير الحوزة والمرجعيّة على لحظة الثورة فحسب، أو على القرن الماضي فقط، بل امتدّ ليشكل البنية الأخلاقيّة والسياسيّة للمجتمع العراقي حتى يومنا هذا. فقد واصلت الحوزة العلميّة دورها في توجيه المجتمع العراقي خلال محطات وحقبات عدة وحرجة. فبعد الثورة، أبدت الحوزة رأيها في المرحلة الانتقاليّة للسلطة، وأبقت عيونها مفتوحةً على تلاعب البريطانيين من جهة، وعلى الملك الحاكم من جهةٍ أخرى وذلك عبر مشاركتها في المفاوضات وانتظار الناس رأيها.

تكمل الحوزة مسارها الوطني، فتُسجّل مواقفها منذ ما قبل الاحتلال البريطاني، إلى ردة فعلها على المدّ الشيوعي، ومقاومة الدكتاتورية، وفي مرحلة الاجتياح الأمريكي، وصولاً إلى ما

بعد ٢٠٠٣. اليوم تستمر المرجعية الدينيّة، ممثّلةً بالعلاّمة المرجع الأعلى السيّد علي السيستاني، في دورها المحوريّ في الحفاظ على السلم المجتمعي، لا سيّما فيما يتعلّق بالتدخلات الأجنبيّة في البلاد، والدفع نحو بناء دولةٍ عادلةٍ لجميع مواطنيها. وقد تجلّى هذا الدور بوضوحٍ في عام ٢٠١٤، حينما أطلقت المرجعية فتوى الدفاع الكفائي[١]، بعد اجتياح تنظيم داعش لأراضٍ عراقيّةٍ واسعة، وهي الفتوى التي شكّلت الإطار الشرعي لتشكيل الحشد الشعبي[٢]، والذي ضمّ آلاف المتطوعين من مختلف مكونات الشعب العراقي للدفاع عن الأرض والعرض والمقدّسات.

وأخيرًا، في يومنا هذا، تستمر الحوزة العلميّة في وقوفها الى جانب الدولة العراقيّة، باحترامٍ متبادل، كمرشد روحيّ لا يتردد في تقديم النصح والمشورة لما فيه مصلحة للشعب العراقيّ، وبذلك تحافظ على دورها التاريخي العريق، وتحفظ إرث الحوزة من جهة وإرث العراق الوطني من جهة أخرى.

١. صبيح عدنان. تفكيك الخطاب المرجعيّ في استذكار فتوى الجهاد، ص ٩٨٦-٩٨.

٢. الزيادي، حسين وهادي، حسام، فتوى الجهاد الكفائي، دراسة في مضامينها الفكرية وأبعادها السياسية. ص ١٦٠-١٧٣.

المصادر والمراجع العربيّة

١. الجادر، إلهام محمود، ورواء كناوي. «مواقف شيخ الشريعة الأصفهاني في ثورة العشرين». مجلة آداب الكوفة م١ عدد ٣٥، ٢٠١٨.

٢. الجنابي، عبد الستار. «الوضع الإداري لمدينة النجف وأثره في النشاط السياسي للحوزة العلمية ١٩١٧-١٩٢٤: دراسة تاريخية موثقة ". مجلة آداب الكوفة.

٣. الحكيم، علاء الدين محمد تقي، «تمويل المرجعية الدينية المالي لثورة العشرين ١٩٢٠»، مجلة آداب الكوفة.

٤. الحيدراوي، أ. د. حميد. «الدور القيادي لعلماء المدن المقدّسة في ثورة العشرين على ضوء الوثائق البريطانية»، مركز دراسات الكوفة، ٢٠٢٢.

٥. الزيادي، حسين، وحسام هادي، «فتوى الجهاد الكفائي- دراسة في مضامينها الفكريّة وأبعادها السياسيّة»، مجلة مركز دراسات الكوفة، جامعة الكوفة ٢، ٢٠٢٣.

٦. الساعدي، كمال، الدين والهوية الوطنية في العراق إعادة قراءة في جدليتهما في ضوء خطب المرجعية وتوجهاتها.

٧. كاشف الغطاء، الشيخ عباس، «الفقه السياسي في مدرسة النجف الأشرف المعاصرة»، مجلة كلية الفقه١ (٢٧). ٢٠١٨.

٨. الكوراني، محمد أمين، «علماء الحَوزة العلميّة وصناعة التاريخ فتاوى الجهاد تُسقط التآمر على العباد والبلاد»، الاستعمار، المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجيّة، ٢٠٢٤.

٩. الوردي، علي، لمحات اجتماعيّة من تاريخ العراق الحديث، الطبعة الثالثة، الجزء الخامس القسم الثاني، بغداد، شركة بيت الوراق للنشر، ٢٠٠٧.

١٠. أبو صبيع، سيف، الدور القيادي للمرجعيّة الدينيّة في النجف الأشرف في عهد المماليك العثمانيين ١٧٥٠ - ١٨٣١ الشيخ جعفر الكبير نموذجًا، مجلة آداب الكوفة.

١١. الف دي ال رش، م العراق في سجلات الوثائق البريطانيّة، محرر البحوث، جين بريشود، ترجمة كاظم سعد الدين، بغداد، ٢٠١٢م،

١٢. سالم، تحسين، «موقف العشائر العراقية من الاحتلال البريطاني وحكم الملك فيصل». مجلة آداب الكوفة ١، العدد (٥٧).

١٣. شخير سوادي، سعيد، وزهراء رياض ناصر، «أثر الحوزة العلمية على الراي العام العراقي في حركة مايس»، مجلة كلية التربية ع. ٣٦، ج. ١ (آب ٢٠١٩).

١٤. صبيح، عدنان، «تفكيك الخطاب المرجعيّ في استذكار فتوى الجهاد "، مجلة مركز دراسات الكوفة، جامعة الكوفة العدد٢. ٢٠٢٣ .

المصادر والمراجع الأجنبية

15. Bell، Gertrude. The Arab of Mesopotomia. Westphalia Press، 2016.

16. Bell، Gertrude Lowthian، and Florence Eveleen Eleanore Olliffe Bell Lady. The Letters of Gertrude Bell. Book، Whole. New York: Boni & Liveright، 1928. https://go.exlibris.link/dwTyCxQq.

17. Marusek، Sarah (Writer on Islamic studies). Faith and Resistance: The Politics of Love and War in Lebanon. Book، Whole. London: Pluto Press، 2018. https://go.exlibris.link/Vwz8wmNc.

18. Nakash، Yitzhak. The Shi'is of Iraq. Princeton، N.J: Princeton University Press، 1994.

19. Tripp، Charles. A History of Iraq. Foreign Affairs. Vol. 80، 2001. https://doi.org/10.2307/20050202.

20. Wilson، Arnold Talbot، Sir. Mesopotamia. Book، Whole. Oxford: Cambridge University Press، 1930. https://go.exlibris.link/Cl7z79L1.